

إحياء علوم الدين

المستمع وصفاء قلبه .

الحالة الرابعة سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود الذي يضاها حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقطت أحاسنهن . وعن مثل هذه الحالة تعبير الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه .

ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى فكأنه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود . وفنى أيضا عن الشهود فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود .

فالمستهتر بالمرئي لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذي به لذته فالسكران لا خبر له من سكره والمتلذذ لا خبر له من التذاده وإنما خبره من المتلذذ به فقط .

ومثاله العلم بالشيء فإنه مغاير للعلم في حق المخلوق وتطراً أيضا في حق الخالق ولكنها في الغالب تكن كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم وإن دام لم تطقه القوة البشرية فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهلك به نفسه .

كما روي عن أبي الحسن النوري أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت .

ما زلت أنزل من وداك منزلا ... تتحير الأبواب عند نزوله .

فقام وتواجد وهام على وجهه .

فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى

الغداة والدم يخرج من رجليه حتى ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات C .

فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهي أعلى الدرجات لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهي ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله أعنى أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدي والسكاكين .

فيسمع الله وبالله وفي الله ومن الله وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال

واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص فلم يبق فيه منه شيء أصلا بل خمدت بالكلية بشريته

وفنى التفاتاته إلى صفات البشرية رأسا ولست أعنى بفنائها فناء جسده بل فناء قلبه ولست

أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح

الذي هو من أمر D عرفها من عرفها وجهلها من جهلها ولذلك السر وجود .
وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر .
ومثاله المرأة المجلوة إذ ليس لها لون في نفسها بل لونها لون الحاضر فيها وكذلك
الزجاجة فإنها تحكي لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها .
وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان
ويعرب عن هذه الحقيقة أعنى سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه قول الشاعر .
رق الزجاج ورق الخمر ... فتشابه فتشاكل الأمر .
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر .
وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد وقال أنا
الحق وحوله يدندن كلام النصرى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلولها
فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم وهو غلط محض يضاهاى غلط من يحكم على المرأة بصورة
الحمرة إذ ظهر فيها لون الحمرة مقابلها وإذا كان هذا لا غير لائق